البيان الحق في القول بخلق السماء قبل الأرض
دراسة تفسيرية تحليلية

د ٠ عبدالله بن خالد بن سعد الحسن

(*)

الملخص:

أَلَّف العلماء قديمًا في دفع ما يوهم التعارض في القرآن الكريم، واعتنوا به أشد الاعتناء؛ لأنه لو لم ينبري له علماء الأمة لتمكن المشككون في بثِّ سمومهم ووهمهم تجاه القرآن الكريم، لذا بقي هذا الفن مهمًّا، فَبه تتكشف بعض معاني الألفاظ، ودقائق التفسير، ويُعرف المراد، ويزال الإشكال، وتُدحض الشبه، وتُنحر الشكوك، وبهذا يظهر أهمية هذا الفن، وأفضليته.

وقد وقفت في هذا البحث على أسرار كثيرة، في عرض أقوال السلف، وطريقة تحليل النصوص، وربطها مع ما يظهر أنه يخالفها –حسب الاستطاعة–.

وتبين أن التقديم والتأخير في القرآن الكريم له أسرار لا تدرك إلا بعد حصر الشواهد من الآيات، والوقوف على ما صحَّ من تفسير السلف.

وقد بلغ عدد الآيات التي ذُكر فيها خلق السماوات والأرض، أو ذُكر فيها خلق السماوات فقط، أو ذُكر فيها خلق الأرض فقط، وقد بلغ عددها (٢١٩) آية.

(*) الأستاذ المشارك بقسم القرآن وعلومه – بكلية أصول الدين والدعوة – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المقدمة:

الحمد لله الذي سخَّر الأرضَ لخلقه وفي السماء تعالى، وجعل الأرضَ ذلولًا والسماء بناءً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وعلى أتباعه صحبًا وآلًا، أما بعد:

فمقام فهم آيات التنزيل مِن العلم الجليل؛ لارتباطه بكلام رب العالمين، وللخيرية المدونة من كلام سيد المرسلين: "خيركم مَن تعلم القرآن وعلمه"[1]، لذا؛ اجتهد المفسرون في تبيين معانيه، وتقريب ألفاظه، وشرح أساليبه، والوقوف على مجمله ومُبَيَّنِه، ودفع ما يتوهم تعارضه.

ولَمَّا كان الاشتغال بتعلم وتعليم القرآن الكريم فيه صد لكل معتد ومعارض؛ برزت جهود العلماء في الدفاع عن القرآن الكريم، وردِّ ما يتوهم تعارضه بردٍّ شافٍ كافٍ بيِّن، فأبطلوا كل شبهة، ودحروا كل حجة باطلة.

ومن باب الوقوف على جهود المفسرين في هذا الشأن، جاء اختياري لهذا البحث الذي يقف على جانب يسير من جوانب جهود المفسرين في دفع ما يوهم التعارض؛ لإبراز القول الصحيح من الباطل، وحصرها وتفنيدها وسبرها، ودفع ما يتوهم تعارضه من القرآن، ورده وإبطاله، وقد أسميته: (البيان الحق في القول بخلق السماء قبل الأرض –دراسة تفسيرية تحليلية).

واللهَ أسأل الإعانة والتوفيق، وأن يجعله نافعًا مقبولًا.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١- لتعلقه ببيان ما يوهم التعارض بين آيات القرآن الكريم.

٢- إبراز جهود العلماء في التصدي للشبهات ودفعها.

٣- الوقوف على منهج العلماء في بيان ما يوهم التعارض بين آيات القرآن

---

[1] صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه (١٩٢/٦)، رقم الحديث: (٥٠٢٧).

الكريم.

أهداف البحث:

١- بيان الآيات التي وردت في خلق السماوات والأرض.

٢- دفع التعارض الموهم بين الآيات في خلق السماوات والأرض.

٣- إبراز أقوال العلماء في بيان زمن خلق السماوات والأرض، والترجيح بينها.

حدود البحث:

الآيات التي ذُكر فيها خلق السماوات والأرض، أو ذُكر فيها خلق السماوات فقط، أو ذُكر فيها خلق الأرض فقط، وقد بلغ عددها (٢١٩) آية.

الدراسات السابقة:

بعد البحث والاطلاع من خلال المراكز العلمية والمكتبات؛ لم أقف على دراسة مستقلة كتبت في دفع ما يوهم التعارض في خلق السماء قبل الأرض، ودراستها دراسة تفسيرية تحليلية، وإنما وجدت مقالات في الإعجاز الكوني، وكذلك فيما يخص علم الفلك في هذا الشأن، وليس لها نصيب من الدراسة التفسيرية.

منهج البحث:

١- حصر الآيات القرآنية التي تتضمن خلق السماوات والأرض.

٢- تصنيف تلك الآيات تصنيفًا موضوعيًا في مباحث، ويتضمن كل مبحث عددًا من المطالب المناسبة.

٣- تخريج الأحاديث والآثار الواردة في البحث، وإذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بالعزو إليهما أو أحدهما، وإن كان في غيرهما أذكر تخريجه من كتب السنة التي أوردته -حسب الإمكان-.

٤- تخريج القراءات الواردة في البحث من الكتب الأصيلة.

٥- ذكر أقوال أهل العلم في المراد بالآيات القرآنية الواردة.

٦- وضع خاتمة للبحث، وفيها أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها في

البحث.

خطة البحث:

وتشتمل على: مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وثبت بأهم المصادر والمراجع.

المقدمة: وتشتمل على:

أهمية البحث وسبب اختياره، وأهداف البحث، وحدود البحث، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وخطة البحث.

التمهيد:

المبحث الأول: الدراسة النظرية، ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الآيات التي وَرَدَ فيها ذِكر خلق السماء قبل الأرض.

المطلب الثاني: الآيات التي وَرَدَ فيها ذِكر خلق الأرض قبل السماء.

المطلب الثالث: القائلون بخلق السماء قبل الأرض.

المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية في دفع ما يتوهم تعارضه، ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: تقدُّم كلمة (السماء) على كلمة (الأرض) في أغلب الآيات.

المطلب الثاني: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ ليست للترتيب، وإنما تعديد للنِّعم.

المطلب الثالث: أنَّ الأرض كرة انفصلت عن الشمس.

المطلب الرابع: أنَّ خلق السماء قبل الأرض مذكور في الكتب السابقة.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج، والتوصيات.

ثم فهرس لمصادر البحث.

التمهيد:

أنزل الله كتابه بلسان عربي مبين، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا تضاد فيه ولا تعارض، ولا تنافر ولا تناقض، محكم التنزيل، ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ٨٩﴾ [النحل: ٨٩].

وقد جعل الله مِن عباده العلماء الذين عَكفوا على خدمة القرآن الكريم، ففسَّروا كتاب ربهم، وأوضحوا للناس ما أشكل عليهم، فَفَهْمُ الناس للقرآن متفاوت، كما أنه كذلك عند العلماء، وأيضًا طريقة العلماء في تفسيرهم وتبيينهم لمعاني الآيات متفاوت، لذا؛ نجد أن العلماء وضعوا قواعد وضوابط لتفسير كلام الله تبارك وتعالى، لا ينبغي الحيد عنها، ولا الخروج إلى غيرها، ولا مخالفتها ومعارضتها، ومن القواعد المهمة ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مقدمته فقال: "أصح الطرق في تفسير القرآن: أنْ يُفسَّر القرآن بالقرآن، فما أُجْمِلَ في مكانٍ فإنه قد فُسِّرَ في موضعٍ آخر، وما اخْتُصِر من مكانٍ فقد بُسِطَ في موضعٍ آخر".[١]

فلا غنى عن تلك القاعدة لكلِّ مَن تعلَّم القرآن وعلَّمه، فهي أُولى وأَولى الطرق في تفسير القرآن كما ذكر شيخ الإسلام، وأنَّ أول ما يُرجع له عند تفسير القرآن هو القرآن؛ لأن النظرة البعضيَّة لآيات القرآن تعطي معانيَ مبتورة وناقصة، وقد يَضِل صاحبها ويُضِل، ولو استوفى جميع الشواهد من الآيات لكمل المعنى، ولزال الإشكال؛ لأنه قد يجد الآية مجملة في موضع، ومفصلة في موضع آخر، وقد نبَّه العلماء على عدم انتزاع الآيات من سياقها، والاستشهاد بها منفردة، وترك ما شابهها في آيات أُخَر، يقول ابن حزم معلِّقًا على مَن يأخذ آيات ويترك بعضها: "ما ضلت -يقصد الخوارج- إلا بتعلقهم بآيات ما، وتركوا غيرها، وتركوا بيان الذي أمره الله ﷻ أن يُبَيِّن للناس ما نُزِّل إليهم"،[٢] وقال الشاطبي: "فإنَّ مأخذ

---

[١] مقدمة في أصول التفسير (ص٣٩).

[٢] الإحكام في أصول الأحكام (٣/٤٠) بتصرف.

الأدلة عند الأئمة الراسخين؛ إنما هو على أن تؤخذ الشريعة كالصورة الواحدة بحسب ما ثبت من كلياتها وجزئياتها المرتبة عليها، وعامها المرتب على خاصها، ومطلقها المحمول على مقيدها، ومجملها المفسر ببينها، إلى ما سوى ذلك مِن مناحيها، ...كذلك الشريعة لا يطلب منها الحكم على حقيقة الاستنباط إلا بجملتها، لا من دليل منها -أي دليل كان-، ...".[1]

ومما يدل على أهمية حصر المواضع ذات الموضوع الواحد؛ لفهم الآيات فهمًا صحيحًا ما ذكره ابن عطية في خلق الأرض قبل السماء: "والذي ينبني من مجموع آي القرآن أنَّ الله تعالى خلق الأرض ولم يدحها، ثم استوى إلى السماء فخلقها، ثم دحا الأرض بعد ذلك".[2]

---

[1] الاعتصام (١/٣١١-٣١٢) بتصرف.

[2] التحرير والتنوير (٢/٢٦٥).

المبحث الأول

الدراسة النظرية، ويشتمل على ثلاثة مطالب

المطلب الأول: الآيات التي وَرَدَ فيها ذِكر خلق السماء قبل الأرض

المتأمل في الآيات القرآنية التي جاء فيها ذكر خلق السماء والأرض؛ يلحظ أن هناك آيات تُوهم وتُشْكِل على من لم يقف على أقوال السلف فيها، واستحضار شواهدها من الآيات، وقد يتوهم أن تلك الآيات تدل على أن خلق السماء قبل الأرض؛ لأنه وقف على آيات أتى فيها ذكر السماء قبل الأرض في سياق تلك الآيات، دون تأمل وتدبر وتفكر.

وفي هذا المطلب سأذكر الآيات التي جاء فيها ذكر السماء قبل الأرض، سواء في آية واحدة، أو في آيتين متتاليتين، أو في آيات ضمن سياق واحد، وتفصيلها على النحو التالي:

أولًا: ذكر كلمة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰت﴾ أو ﴿ٱلسَّمَآء﴾ قبل كلمة ﴿ٱلْأَرْض﴾ في آية واحدة:

وجاءت في (٢٠٣) مواضع في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] [آل عمران: ١٩٠]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] [يونس: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [السجدة: ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧].

ثانيًا: ذكر كلمة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أو ﴿ٱلسَّمَآء﴾ قبل كلمة ﴿ٱلْأَرْض﴾ في آيتين متتاليتين:

وجاءت في موضعين اثنين في القرآن الكريم، وهي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾ [الرعد: ٢-٣]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا۝٦﴾ [الشمس: ٥-٦].

ثالثًا: ذكر كلمة ﴿ٱلسَّمَآء﴾ قبل كلمة ﴿ٱلْأَرْض﴾ في آيات ضمن سياق واحد:

وجاءت في موضعين اثنين في القرآن الكريم، وهي قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ۝٣٠﴾ [النازعات: ٢٧-٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ۝٢٠﴾ [الغاشية: ١٨-٢٠].

فتلك الأقسام الثلاثة جاء فيها ذكر السماء قبل الأرض في (٢٠٧) مواضع في القرآن الكريم، واحتُجَّ بها على أن السماء خُلقت قبل الأرض، ومَن بَعُد عن أقوال السلف في تفسير تلك الآيات، فإنه قد يتوهم أن السماء خُلقت قبل الأرض

بمجرد أنها تقدَّم ذكرها، وسيأتي في المبحث الثاني مناقشة أقوال القائلين بذلك، وعرض حججهم، وردها.

المطلب الثاني: الآيات التي وَرَدَ فيها ذِكر خلق الأرض قبل السماء

ومن جهة أخرى؛ لو تأمل القارئ لكتاب الله ﷻ، ووقف على أقوال السلف في تفسير الآيات التي جاء فيها ذكر السماء والأرض، وحصَر الشواهد التي جاء فيها ذكر الأرض قبل السماء، فسيظهر له ويتبين أن تلك الآيات تدل على أن خلق الأرض قبل السماء قطعًا، ولو كانت الآيات فيها قليلة -مقارنة بالآيات التي جاء فيها ذكر السماء قبل الأرض-.

وهنا سأذكر الآيات التي جاء فيها ذكر الأرض قبل السماء، سواء في آية واحدة، أو في آيتين متتاليتين، أو في آيات ضمن سياق واحد، وتفصيلها على النحو التالي:

أولًا: ذكر كلمة ﴿ٱلْأَرْض﴾ قبل كلمة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰت﴾ أو ﴿ٱلسَّمَآء﴾ في آية واحدة:

وجاءت في (٨) مواضع في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ [طه: ٤]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [غافر: ٦٤].

ثانيًا: ذكر كلمة ﴿ٱلْأَرْض﴾ قبل كلمة ﴿ٱلسَّمَآء﴾ في آيتين متتاليتين:

وجاءت في موضع واحد في القرآن الكريم، وهي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ٣١ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ٣٢﴾ [الأنبياء: ٣١-٣٢].

ثالثًا: ذكر كلمة ﴿ٱلْأَرْض﴾ قبل كلمة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰت﴾ أو ﴿ٱلسَّمَآء﴾ في آيات ضمن سياق واحد:

وجاءت في (٣) مواضع في القرآن الكريم، وهي قوله تعالى: ﴿۞قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ١١﴾ [فصلت: ٩-١١]، وقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ٢١ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ٢٢﴾ [الذاريات: ٢٠-٢٢]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا١٢﴾ [النبأ: ٦-١٢].

فتلك الأقسام الثلاثة جاء ذكر الأرض قبل السماء في (١٢) موضعًا في القرآن الكريم، دالة على خلق الأرض قبل السماء، وسيأتي في المبحث الثاني تفصيل ذلك.

المطلب الثالث: القائلون بخلق السماء قبل الأرض

وقد وقفتُ على كلام لبعض علماء السلف، ومن جاء بعدهم، وأيضًا من المعاصرين الذين أفنوا حياتهم في خدمة كتاب الله وتفسيره؛ على أن السماء خُلقت قبل الأرض، مع وجود الشواهد من الآيات على غير ما قالوا، وما ورد أيضًا في الصحيح عن ابن عباس ﷺ[١]، ولكن جلَّ من لا يخطئ.

وهنا سأذكر هؤلاء العلماء الذين وقفتُ على أقوالهم -المخالفة لما ورد في الصحيح، وما قُرن بالشواهد-، ناقلًا أقوالهم حسب ما وقفتُ عليها، وهم ما يلي:

أولًا: قتادة بن دعامة السدوسي، المفسِّر المشهور، فقد نقل عنه الطبري في تفسيره قائلًا: "أمَّا قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: ١]، فإنه خلق السَّماوات قبل الأرض، والظلمةَ قبل النور، والجنَّة قَبل النار".[٢]

ثانيًا: مقاتل بن سليمان الأسدي، من أئمة المفسرين، فقد قال عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ [فصلت: ١١]: "قبل ذلك"،[٣] يقصد (قبل ذلك) أي: قبل خلق الأرض في يومين...، وقال أيضًا عند قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ٣٠﴾ [النازعات: ٣٠]: "يقول بعد بناء السماء...".[٤]

ثالثًا: فخر الدين الرازي، المشهور بتفسيره: مفاتيح الغيب، فقد شنَّع على من قال أن الأرض خُلقت قبل السماء؛ بل نسبه إلى الإلحاد! فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾

---

[١] سيأتي ذِكره بإذن الله تعالى.

[٢] جامع البيان (٢٥٠/١١).

[٣] تفسير مقاتل (٧٣٧/٣).

[٤] تفسير مقاتل (٥٧٨/٤).

[البقرة: ٢٩]: "قال بعض الملحدة: هذه الآية تدل على أن خلق الأرض قبل خلق السماء، وكذا قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [فصلت: ١١]..."،[١] وقال عند قوله تعالى: ﴿۞قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]: "والمختار عندي أن يقال: خَلْقُ السموات مقدَّم على خلق الأرض".[٢]

رابعًا وأخيرًا: محمد الطاهر ابن عاشور، فقد فصَّل في ذكر الخلاف بين خلق السماء قبل الأرض، ثم قال بعد أن ذكر القولين: "وأرجح القولين هو: أنَّ السماء خُلقت قبل الأرض؛ لأن لفظ ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ [النازعات: ٣٠] أظهر في إفادة التأخر من قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩]؛ ولأن أنظار علماء الهيئة ترى أنَّ الأرض كرة انفصلت عن الشمس كبقية الكواكب السيارة مِن النظام الشمسي...".[٣]

ولا يخفى على طالب العلم فضل أولئك العلماء، لا سيما في خدمة كتاب الله، فلهم من الله جزيل الثواب، وحسن المآب، ولكن كل ابن آدم خطاء، والعِلم رَحِم واحد، والتبيين مطلب، وإزالة الإشكال واجب، وتقريب المعاني مقصد، لذا؛ أردتُ تبيين ما أشكل، وإيضاح ما أغمض، بجمع الشواهد والآيات، والوقوف على كلام العلماء، وما حَوته تلك الآيات من معاني في كتب أهل العلم.

والبحث في هذه المسألة –في ظني– قائم على قاعدتين من قواعد التفسير، وقد تأتي قواعد أخرى ترادفها، ولكن القاعدتين أصل لا تنفك عن هذه المسألة، وهما:

---

[١] التفسير الكبير (٢/٣٨٠).

[٢] التفسير الكبير (٢٧/٥٤٩).

[٣] التحرير والتنوير (١/٣٨٤).

القاعدة الأولى: أصح الطرق في تفسير القرآن: أنْ يُفسَّر القرآن بالقرآن.[١]

القاعدة الثانية: قول الصحابي مقدَّم على غيره في التفسير، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة؛ رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك؛ لِما شاهدوه من القرآن، والأحوال التي اختصوا بها، ولِما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، ..."[٢].

[١] انظر: مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية (ص٣٩).

[٢] مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية (ص٤٠–٤١).

المبحث الثاني

الدراسة التطبيقية في دفع ما يتوهم تعارضه

بعد الرجوع إلى كتب العلماء، والوقوف على الآيات التي ورد فيها ذِكر السماء والأرض، تبين لي أنَّ حجج القائلين بأن السماء خلقت قبل الأرض تكمن في أربعة حجج، لذا قسمتها على مطالب؛ لكي أذكر حجتهم على حدة، وأُبين لكل حجة الرد المناسب لها مِن أقوال العلماء.

المطلب الأول: تقدُّم كلمة (السماء) على كلمة (الأرض) في أغلب الآيات.

احتج القائلون بأنَّ السماء خلقت قبل الأرض بحجة: أنَّ كلمة السماء جاء ذكرها قبل كلمة الأرض في أغلب الآيات،[1] وقد سبق بيان ذلك –أن كلمة (السماء) جاءت في القرآن الكريم قبل كلمة (الأرض) في مواضع عديدة–.

والمتأمل والملاحِظ في آيات القرآن الكريم، يجد تقدُّم ذكر السماء في بعض الآيات، ولا يمكن أن يكون ذلك قاطعًا على خلق السماء قبل الأرض، فليس شرطًا في تقدُّم كلمة ﴿ٱلسَّمَآء﴾ على كلمة ﴿ٱلۡأَرۡض﴾ أنَّ السماء خُلقت قبلها، لا سيما أن هناك آيات ذكر فيها كلمة ﴿ٱلۡأَرۡض﴾ قبل كلمة ﴿ٱلسَّمَآء﴾، بل تقدُّم كلمة ﴿ٱلسَّمَآء﴾ على كلمة ﴿ٱلۡأَرۡض﴾ في القرآن يدل على أنَّ الآيات في السماوات أعظم منها في الأرض؛ لسعتها وعظمها، وما تحتويه من كواكب ومجرات، وما فيها من بروج وشمس وقمر وغيرها، وليس في تقدُّم كلمة السماء على الأرض دليل أنها خُلقت قبلها.

قال ابن القيم رحمه الله في سبب تقدُّم كلمة السماء على كلمة الأرض في القرآن الكريم: "ومعلوم أن الآيات في السماوات أعظم منها في الأرض؛ لسعتها، وعظمها، وما فيها من كواكبها، وشمسها، وقمرها، وبروجها، وعلوها، واستغنائها

---

[1] انظر: التفسير الكبير (٢/٣٨٠). والتحرير والتنوير (١/٣٨٤).

عن عمد تقلها، أو علاقة ترفعها، إلى غير ذلك من عجائبها، وما فيها كقطرة في سعتها، ولهذا أمر سبحانه بأن يرجع الناظر فيها البصر كرة بعد كرة، ويتأمل استواءها، واتساقها، وبراءتها من الخلل والفطور، فالآية فيها أعظم من الأرض، وفي كل شيء له آية سبحانه وبحمده"[١].

فسبب تقدُّم كلمة ﴿ٱلسَّمَآء﴾ على كلمة ﴿ٱلۡأَرۡض﴾ في القرآن الكريم؛ أنها أعظم مِن الأرض خِلقة، والآيات فيها أعظم مِن الآيات في الأرض، وهذا ما يوهم أنَّ السماء خُلقت قبل الأرض، وقد أودع الله ﷻ في كتابه أساليب كثيرة، منها التقديم والتأخير، ولم يكن سر التقدم والتأخير في القرآن مقتصرًا على البدء بالخلق، أو بالأولية، أو الأسبقية، وقد ذكر السيوطي رحمه الله في كتابه معترك الأقران عشرة أنواع في أسباب التقديم وأسراره، ولم يتطرق لسبب تقدم كلمة السماء على الأرض أنها خُلقت قبلها، بل ذكر في النوع السادس: السبق، فقال: (السادس: السبق، وهو إما في الزمان باعتبار الإيجاد، كتقديم الليل على النهار، والظلمات على النور، وآدم على نوح، ونوح على إبراهيم، وإبراهيم على موسى، وهو على عيسى، وداود على سليمان، والملائكة على البشر ...) إلى آخره،[٢] ولم يتطرق لخلق السماء قبل الأرض في هذا النوع، ولا في الأنواع التسعة الباقية، مما يدل على بطلان من احتج بتقدم كلمة السماء على الأرض أنها خُلقت قبل.

فالتقديم والتأخير في القرآن الكريم له أسرار؛ لا يمكن الجزم والقطع على استنتاج هذا السر إلا بعد حصر الآيات وشواهدها من القرآن الكريم، ثم تأملها تأملًا دقيقًا، والرجوع إلى كلام السلف في كل موضع، والنظر إلى سياق الآيات سابقها ولاحقها.

والمتأمل في الآيات التي تقدم فيها ذكر كلمة ﴿ٱلسَّمَآء﴾ على كلمة

---

[١] انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم (٧٤/١).

[٢] معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي (١٣٤/١).

﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾؛ فسيلحظ أنها تكون غالبًا في ذكر عظمة الخالق، والدالة على وحدانيته ﷻ، قال ابن القيم: "وأما تقديم السماء على الأرض ففيه معنى، وهو: أن السماوات والأرض تذكر غالبًا في سياق آيات الرب الدالة على وحدانيته وربوبيته".[1]

المطلب الثاني: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ ليست للترتيب، وإنما تعديد للنِّعم.

وأما حجتهم الثانية، وهي: أنَّ كلمة ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ ليست للترتيب، وإنما هي على جهة تعدد النِّعم،[2] وقد قالوا بهذا القول لكي يخرجوا من التضاد الحاصل في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾ [النازعات: ٣٠]، والجواب على ذلك ما ذكره ابن الفرس في تفسيره قائلًا: "وهذه ﴿ثُمَّ﴾ إنْ حُملت على بابها من الترتيب: اقتضت أنَّ الأرض وما فيها خلق قبل السماء، وقد قال بذلك قوم، وقوله تعالى في سورة النازعات بعد ذكر خلق السماء ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾ يقتضي ظاهرها: أنَّ السماء خُلقت قبل الأرض، وقد قال به قوم، وكذلك ما في سورة فصلت، والصواب: أنْ يُجمع بين الآيات، فيقال: إنَّ الأرض خُلقت قبل السماء على ما في سورة البقرة، ثم خلقت السماء، ثم دحيت الأرض بعد خلق السماء على ما في سورة النازعات، وفصلت".[3]

---

[1] انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم (٧٤/١).

[2] انظر: التفسير الكبير (٣٨١/٢).

[3] أحكام القرآن (٤٨/١). وينظر أيضًا ممن قال بأن ﴿ثُمَّ﴾ بمعنى الترتيب: المحرر الوجيز، لابن عطية (١١٥/١). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٥٤/١). والتسهيل لعلوم التنزيل (٧٨/١). والبحر المحيط في التفسير، لأبي حيان (٢٩١/٩). وإرشاد العقل السليم، لأبي

قال الشنقيطي في دفع إيهام الاضطراب عند قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]: (هذه الآية تدل على أن خلق الأرض قبل خلق السماء؛ بدليل لفظة ﴿ثُمَّ﴾ التي هي للترتيب والانفصال، وكذلك آية "حم السجدة"؛ تدل أيضًا على خلق الأرض قبل خلق السماء...).[١]

المطلب الثالث: أنَّ الأرض كرة انفصلت عن الشمس.

وهذه الحُجة الثالثة، وهي: أنَّ علماء الفَلَك قالوا: أنَّ الأرض كرة انفصلت عن الشمس كبقية الكواكب السيارة من النظام الشمسي.[٢]

ولم أقف على مَن قال أن الأرض كانت كرة فانصلت من الشمس ففرَّق الله بينهم، وإنما هو قول لعلماء الهيئة -كما ذكر ذلك ابن عاشور-، ويُرد على هذا القول مِن القرآن الكريم أنَّ الله ﷻ قال في كتابه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبيَاء: ٣٠]، أي: كانتا متلاصقتين، ففرَّق الله بينهما،[٣] وذكر العلماء خلافًا طويلًا في كيفية التفريق بينهما -ليس

السعود (٦/٨). والبحر المديد، لابن عجيبة (٩٢/١). وتفسير المراغي (١١١/٢٤). وأضواء البيان، للشنقيطي (١٤/٧). وإعراب القرآن وبيانه، لدرويش (٣٦٦/٣). وتفسير العثيمين سورة الحجرات – الحديد (ص٣٦٦).

[١] انظر: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشنقيطي (ص٤٣-٤٦).

[٢] انظر: التحرير والتنوير (٣٨٤/١).

[٣] انظر: جامع البيان (٤٣٠/١٨). والهداية إلى بلوغ النهاية، لمكي (٤٧٤٨/٧). وتفسير السمعاني (٣٧٧/٣). والمحرر الوجيز (٧٩/٤). وإيجاز البيان عن معاني القرآن، للنيسابوري (٥٥٧/٢). وزاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي (١٨٩/٣). والتفسير الكبير (١٣٧/٢٢). وتفسير العز بن عبدالسلام (٣٢٢/٢). والتسهيل لعلوم التنزيل، لابن

محله هنا-، ولا يمكن القول بذلك -أن الأرض كرة انفصلت عن الشمس-؛ بدليل هذه الآية، وأنَّ الله ﷻ لم يذكر ذلك في كتابه: أنه فرَّق بين الشمس والسماء والأرض، ولم يأتِ ذِكر لخلق الشمس مع خلق السماء والأرض.

قال ابن قتيبة عند آيات سورة فصلت: (قوله تعالى: ﴿۞قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١﴾ [فصلت: ٩-١١]، فدلت هذه الآيات على أنه خلق الأرض قبل السماء، وقال في موضع آخر: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠﴾ [النازعات: ٢٧-٣٠]، فدلَّت هذه الآية على أنه خلق السماء قبل الأرض، وليس على كتاب الله تحريف الجاهلين، وغلط المتأولين، وإنما كان يجد الطاعن متعلَّقًا ومقالًا لو قال: والأرض بعد ذلك خلقها أو ابتدأها أو أنشأها، وإنما قال: ﴿دَحَىٰهَآ ۝٣٠﴾، فابتدأ الخلق للأرض على ما في الآي الأول في يومين، ثم خلق السماوات -وكانت دخانًا- في يومين، ثم دحا بعد ذلك الأرض، أي: بسطها ومدّها، وكانت ربوة مجتمعة، وأرساها بالجبال، وأنبت فيها النبات في يومين، فتلك ستة أيام سواء للسائلين، وهو معنى قول ابن عباس).[1]

جزي (٢١/٢). واللباب في علوم الكتاب، لابن عادل (٤٨٥/١٣). والدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي (٦٢٥/٥). وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود (٦٤/٦).

[1] انظر: تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة (ص٤٧-٤٨).

أما ابن كثير[١] فقال عند قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]: (ففي هذا دلالة على أنه تعالى ابتدأ بخلق الأرض أولًا ثم خلق السماوات سبعًا، وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله ثم أعاليه بعد ذلك، وقد صرَّح المفسرون بذلك)،[٢] ثم استشهد على ذلك بقوله تعالى في سورة فصلت، ثم قال: (فهذه وهذه -يقصد آية سورة البقرة وسورة فصلت- دالتان على أنَّ الأرض خُلقت قبل السماء، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعًا بين العلماء إلا ما نقله ابن جرير عن قتادة: أنه زعم أنَّ السماء خُلقت قبل الأرض، وقد توقف في ذلك القرطبي...، وفي صحيح البخاري[٣]: أن ابن عباس سئل عن هذا بعينه، فأجاب

---

[١] ابن كثير هو من صرَّح بأن المفسرين قالوا بخلق الأرض قبل السماء، أما الطبري فلم يذكر شيئًا عن خلق الأرض قبل السماء؛ إلا قول ابن عباس بسنده عنه، ولم يعقب الطبري -على غير عادته- على ذلك، ولم يقر! وقول ابن عباس عند الطبري هو: (ذكر خلق الأرض قبل السماء، ثم ذكر السماء قبل الأرض، وذلك أن الله خلق الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السماء، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ﴾ [البقرة: ٢٩]، ثم دحا الأرض بعد ذلك، فذلك قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]). انظر: جامع البيان (٤٣٧/١). وأما القرطبي لم يجزم بذلك، فقال عند تفسيره لسورة البقرة: (يظهر من هذه الآية أنه سبحانه خلق الأرض قبل السماء، وكذلك في حم السجدة. وقال في النازعات: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧] فوصف خلقها، ثم قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، فكأن السماء على هذا خلقت قبل الأرض، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، وهذا قول قتادة: إن السماء خلقت أولًا). انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٥٥/١). فكأن القرطبي لم يصرح كتصريح ابن كثير في الإجماع والقول القاطع كما ورد عن ابن عباس ﷺ.

[٢] تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢١٣/١).

[٣] انظر: صحيح البخاري (١٢٧/٦).

بأن الأرض خلقت قبل السماء، وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء، وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديمًا وحديثًا، وقد قررنا ذلك في تفسير سورة النازعات).[1]

وقال عند قوله تعالى: ﴿۞قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ١١﴾ [فصلت: ٩-١١]: (ذكر أنه خلق الأرض أولًا؛ لأنها كالأساس، والأصل أن يبدأ بالأساس، ثم بعده بالسقف).[2]

وقال عند قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ٢٩ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾ [النازعات: ٢٧-٣٠]: (وقد تقدم في سورة "حم السجدة"[3] أنَّ الأرض خلقت قبل السماء، ولكن إنما دحيت بعد خلق السماء، بمعنى: أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل، وهذا معنى قول ابن عباس، وغير واحد).[4]

المطلب الرابع: أنَّ خلق السماء قبل الأرض مذكور في الكتب السابقة.

وأما الحُجة الرابعة، وهي: أنَّ خلق السماء قبل خلق الأرض كان مذكورًا في

---

[1] تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢١٥/١).

[2] تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١٥٦/٧).

[3] يقصد سورة فصلت عند قوله تعالى: ﴿۞قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ٩﴾ [فصلت: ٩].

[4] تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣١٦/٨).

الكتب السابقة، ويمكن الرد عليهم بما جاء في الصحيح عن ابن عباس ﷺ في خلق الأرض قبل السماء، فقد سئل عن آية ذكر فيها خلق السماء قبل خلق الأرض، وآية أخرى ذكر فيها خلق الأرض قبل خلق السماء؟ فقال ﷺ: «... خلقَ الأرض في يومين ثم خلق السماء، ...»،[١] فهذا قول صحيح ثابت وصريح في خلق الأرض قبل السماء من ابن عباس ﷺ، ولم نجد له مخالفًا من الصحابة ولا من التابعين، ولا يجوز لنا رد قول ابن عباس ﷺ إلا بدليل قاطع الثبوتية بخلاف ذلك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك؛ لِما شاهدوه من القرآن، والأحوال التي اختصوا بها، ولِما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين؛ مثل عبد الله بن مسعود ﷺ، .... ومنهم الحبر البحر عبدالله بن عباس، ابن عم رسول الله ﷺ، وترجمان القرآن، ببركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ»[٢]"[٣]، وقد قال الحاكم في المستدرك: "وتفسير الصحابي عندنا في حكم المرفوع"[٤]، وقال ابن حجر معقِّبًا على قول الحاكم: "والحق أن ضابط ما يفسره الصحابي ﷺ إن كان مما لا مجال

---

[١] صحيح البخاري، كتاب: تفسير القرآن الكريم، باب قوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ٦٨﴾ [الزمر: ٦٨]، (١٢٧/٦). وسيأتي تفصيل هذا الحديث بإذن الله تعالى.

[٢] مسند الإمام أحمد، (٩٥/٣)، رقم الحديث: (٢٣٩٦). قال الحاكم في المستدرك: هذا حديث صحيح الإسناد (٦١٥/٣).

[٣] مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية (ص٤٠-٤١).

[٤] انظر: المستدرك على الصحيحين، للحاكم (٢٨٣/٢). وقول الحاكم في المستدرك هو: "ليعلم طالب هذا العلم أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عند الشيخين حديث مسند".

للاجتهاد فيه، ولا منقولًا عن لسان العرب؛ فحكمه الرفع، وإلا فلا، كالأخبار عن الأمور الماضية من بدء الخلق، وقصص الأنبياء، وعن الأمور الآتية: كالملاحم، والفتن، والبعث، وصفة الجنة، والنار، والأخبار عن عمل يحصل به ثواب مخصوص، أو عقاب مخصوص، فهذه الأشياء لا مجال للاجتهاد فيها، فيحكم لها بالرفع"[1]، وهذا مما لا شك فيه؛ أنه من الأمور الغيبية، ولا مجال للاجتهاد فيها، ولا ريب أن أقوال الصحابة ﷺ في التفسير أصوب وأصح مِن مَن جاء بعدهم.[2]

ومما يمكن الرد –عمومًا– على من قال: أن السماء خلقت قبل الأرض ما يلي:

أولًا: الاحتجاج بالقراءة الشاذة التي رويت عن مجاهد، وهي: {وَٱلۡأَرۡضَ مَعَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ}[3]، وهذه القراءة لا تعارض قراءة الجمهور ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾؛ لأن المعنى لا يكون أن الأرض دحيت مع خلق السموات وفي نفس الوقت، بل اجتماعهما في الخلق، لا أن زمان الفعلين واحد، كما يقال: فلان كريم، فيقال: وهو مع ذلك شجاع، أي: قد اجتمع له الوصفان، وليس غرضه فيه ترتيب الزمان، ونظير هذه القراءة الشاذة قوله تعالى: ﴿عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ١٣﴾ [القلم: ١٣].[4]

ثانيًا: في الآيتين السابقتين –سورة الأنبياء وسورة فاطر– نلاحظ أن الله ﷻ ذكر

---

[1] انظر: النكت على كتاب ابن الصلاح، لابن حجر (٥٣١/٢).

[2] انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم (١١٤/٤).

[3] انظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لابن جني (٣٥١/٢)، وشواذ القراءات، للكرماني (ص٥٠٢).

[4] انظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لابن جني (٣٥١/٢)، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشنقيطي (ص٤٣–٤٦).

كلمة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰت﴾ بالجمع، بخلاف ما جاء في سورة النازعات، فقد ذكرها بالإفراد (السماء)، ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧﴾، ولم يقل -ولا ملزم على الله ﷻ-: (أأنتم أشد خلقًا أم السماوات بناها...)، ولو تأملنا -أيضًا- قول الله ﷻ في سورة البقرة؛ لتبين لنا لماذا أفرد هنا -في سورة النازعات-، وجمع هناك -في سورة الأنبياء-، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٌ ٢٩﴾ [البقرة: ٢٩]، فلم يقل هنا -ولا ملزم على الله ﷻ-: (ثم استوى إلى السماوات)، بل أفردها بعد أن ذكر أنه خلق الأرض، وفيه دليل أنه خلق الأرض قبل السماء، قال مجاهد رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا﴾: (خلق الله الأرض قبل السماء، فلما خلق الأرض ثار منها دخان، فذلك حين يقول: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١])[1]، فالتحقيق في ذلك ما فسّره ابن عباس ﷺ، كما أشكلت بعض آيات على رجل سأل ابن عباس ﷺ عنها فقال: «خلقَ الأرض في يومين ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحا الأرض، ودحوها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجمال والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله: ﴿دَحَىٰهَآ ٣٠﴾ [النازعات: ٣٠]، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِى يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: ٩]، فجعلت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخلقت السموات في يومين ...»[2]، والمعنى في ذلك: أن الله ﷻ خلق الأرض قبل السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن ﷻ في يومين آخرين، ثم بعد ذلك دحا الأرض، وبهذا يزول الإشكال

---

[1] انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٧٤/١).

[2] انظر: صحيح البخاري (١٢٧/٦).

الذي ورد بين الآيات الثلاث -آية الأنبياء: ٣٠، وآية فاطر: ١، وآية النازعات: ٢٧-، وتتضح الآيات ومعانيها.

الخاتمة

بعد عون الله وتوفيقه، هذا ما يسَّر الله لي جمعه ودراسته في دفع ما يوهم تعارضه في خلق السماء قبل الأرض، فَلَهُ المنَّة والفضل وحدَه، واللهَ أسأل الإخلاص والتوفيق والسداد في القول والعمل.

وفيما يلي خُلاصة ما توصَّلت إليه في هذا البحث مِن نتائج، وهي على النحو التالي:

١- ليس شرطًا في تقديم كلمة السماء على كلمة الأرض أنها خلقت قبل.

٢- ثبت في الصحيح ما جاء عن ابن عباس ﷺ أنَّ الأرض خلقت قبل السماء.

٣- التقديم والتأخير في القرآن الكريم له أسرار لا تدرك إلا بعد حصر الشواهد من الآيات.

٤- ذهب أكثر العلماء من السلف والخلف إلى أن الأرض خلقت قبل السماء، وذكر بعضهم الإجماع على ذلك.

٥- أنه يجمع بين ما يوهم التعارض في بعض الآيات التي يقتضي ظاهرها: أنَّ السماء خُلقت قبل الأرض، والآيات التي ظاهرها يقتضي أن الأرض خلقت قبل السماء، فيقال: إنَّ الأرض خُلقت قبل السماء على ما في سورة البقرة، ثم خلقت السماء، ثم دحيت الأرض بعد خلق السماء على ما في سورة النازعات، وفصلت.

أمَّا التوصيات:

١– دراسة أقوال علماء الفَلَك في الآيات التي يستشهدون بها، دراسة تفسيرية تحليلية.

٢– المقارنة بين أقوال السلف في الآيات الكونية، وتنزيلها على الواقع.

3- جمع أقوال السلف في التفسير، ومقارنتها مع علماء الفَلَك.

فهرس المصادر والمراجع

١- **أحكام القرآن. المؤلف: أبو محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم المعروف «بابن الفرس» (المتوفى: ٥٩٧ هـ). تحقيق: طه بو سريح وغيره الناشر: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان. الطبعة: الأولى ١٤٢٧هـ.**

٢- **الإحكام في أصول الأحكام. المؤلف: أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ). المحقق: الشيخ أحمد شاكر. قدم له: إحسان عباس. الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت.**

٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ). الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٤- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. المؤلف : محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣هـ). الناشر: دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان. عام النشر ١٤١٥هـ.

٥- **الاعتصام. المؤلف: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ). تحقيق: سليم الهلالي. الناشر: دار ابن عفان، السعودية. الطبعة: الأولى ١٤١٢هـ.**

٦- إعراب القرآن وبيانه. المؤلف: محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى: ١٤٠٣هـ). الناشر: دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص. الطبعة الرابعة ١٤١٥ هـ.

٧- **إعلام الموقعين عن رب العالمين. المؤلف: محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١ هـ). تحقيق: مشهور آل سلمان.**

الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية. الطبعة: الأولى ١٤٢٣هـ.

٨- **إيجاز البيان عن معاني القرآن. المؤلف: محمود بن أبى الحسن بن الحسين النيسابوري (المتوفى: نحو ٥٥٠هـ). المحقق: حنيف القاسمي. الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت. الطبعة: الأولى ١٤١٥ هـ.**

٩- البحر المحيط في التفسير. المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ). المحقق: صدقي محمد جميل. الناشر: دار الفكر – بيروت. الطبعة ١٤٢٠هـ.

١٠- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد. المؤلف: أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني (المتوفى: ١٢٢٤هـ). المحقق: أحمد رسلان. الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة. الطبعة: ١٤١٩ هـ.

١١- بدائع الفوائد. المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ). الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

١٢- تأويل مشكل القرآن. المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ). المحقق: إبراهيم شمس الدين. الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

١٣- التحرير والتنوير. المؤلف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ). الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس. سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.

١٤- التسهيل لعلوم التنزيل. المؤلف: محمد بن أحمد بن محمد ابن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفى: ٧٤١هـ). المحقق: عبد الله الخالدي. الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت. الطبعة: الأولى ١٤١٦هـ.

١٥- تفسير القرآن. المؤلف: عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (المتوفى: ٦٦٠هـ). المحقق: عبد الله الوهبي. الناشر: دار ابن حزم – بيروت. الطبعة: الأولى ١٤١٦هـ.

١٦- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم. المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ). المحقق: أسعد محمد الطيب. الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العربية السعودية. الطبعة: الثالثة – ١٤١٩ هـ.

١٧- تفسير القرآن العظيم. المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ). المحقق: سامي بن محمد سلامة. الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع. الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ.

١٨- تفسير القرآن الكريم، سورة الحجرات إلى الحديد، لفضيلة الشيخ العلامة: محمد بن صالح العثيمين، طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، دار الثريا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

١٩- تفسير القرآن. المؤلف: منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد السمعاني (المتوفى: ٤٨٩هـ). المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم. الناشر: دار الوطن، الرياض. الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

٢٠- تفسير المراغي. المؤلف: أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ). الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر. الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م.

٢١- تفسير مقاتل بن سليمان. المؤلف: أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى (المتوفى: ١٥٠هـ). المحقق: عبد الله محمود شحاته. الناشر: دار إحياء التراث – بيروت. الطبعة الأولى١٤٢٣هـ.

٢٢- جامع البيان في تأويل القرآن. المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ). المحقق: أحمد محمد شاكر. الناشر: مؤسسة الرسالة. الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ.

٢٣- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري. المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي. المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر. الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي). الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٤- الجامع لأحكام القرآن. المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ). المحقق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة. الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

٢٥- الدر المنثور في التفسير بالمأثور. المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ). الناشر: دار الفكر – بيروت.

٢٦- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب. المؤلف: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣هـ). الناشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة. الطبعة : الأولى ١٤١٧ هـ.

٢٧- زاد المسير في علم التفسير. المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ). المحقق: عبد الرزاق المهدي. الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت. الطبعة الأولى١٤٢٢هـ.

٢٨- شواذ القراءات. المؤلف: أبو عبدالله محمد بن أبي نصر الكرماني. المحقق: الدكتور شمران العجلي. الناشر: مؤسسة البلاغ بيروت – لبنان.

٢٩- اللباب في علوم الكتاب. المؤلف: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ). المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض. الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان. الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م.

٣٠- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها. المؤلف: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ). الناشر: وزارة الأوقاف- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. الطبعة: ١٤٢٠هـ.

٣١- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. المؤلف: عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية الأندلسي (المتوفى: ٥٤٢هـ). المحقق: عبدالسلام محمد. الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٣٢- المستدرك على الصحيحين. المؤلف: الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن الحكم الضبي النيسابوري (المتوفى: ٤٠٥هـ). تحقيق: مصطفى عطا. الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

٣٣- مسند الإمام أحمد بن حنبل. المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ). المحقق: أحمد محمد شاكر. الناشر: دار الحديث – القاهرة. الطبعة: الأولى ١٤١٦هـ.

٣٤- معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران). المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ). دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان. الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

٣٥- مقدمة في أصول التفسير. المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية

الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ). الناشر: دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان. الطبعة: ١٤٩٠هـ - ١٩٨٠م.

٣٦- النكت على كتاب ابن الصلاح. المؤلف: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ). المحقق: ربيع المدخلي. الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة. الطبعة: الأولى ١٤٠٤هـ.

الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، المؤلف: مكي بن أبي طالب حَمّوش الأندلسي القرطبي المالكي (المتوفى: ٤٣٧هـ)، المحقق: مجموعة رسائل جامعية -جامعة الشارقة، الناشر: جامعة الشارقة، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.